رأى جديد في :

حمـــاد الراوية

الأستاذ السيد يعقوب بكر

— ٥ —

٥ — رأينا في مدى انتحال حماد

لنسبق المقدمات إلى النتائج ، ولنُدلِ برأينا الذي انتهينا إليه بعد البحث الطويل ، لنعود فنؤيده بما سنؤيده به من الأدلة والبراهين .

هذا الرأي هو أن حماداً لم يبلغ من الانتحال ذلك المدى الذي تصفه لنا كتب القدماء . ليس من شك في أنه انتحل بعض الأشعار ، وكان في هذا متأثراً بحال الرواية في عصره ، ولكنه لم يكن مشغوفاً بالانتحال عاكفاً عليه جاعلا له همّه وقصده .

فأما تدليلنا على صحة هذا الرأي ، فإنما نجعله قسمين : قسما نأتي فيه بأدلة عقلية ونقلية ، وقسما نمحص فيه ما ذكرناه من تلك الأقوال والأخبار التي أوردها القدماء في صدد انتحال حماد .

القسم الأول

(١) يقول القدماء إن حماداً كان شاعراً ، وإنه كان شاعراً مجيداً ؛ وإنه كان يصنع الأشعار ، ويدسّها على الجاهليين ، فتختلط بأشعارهم ، ويصعب التمييز بين هذه وتلك . ونحن نرى أنه كان شاعراً ، فقد قرأنا له طائفة من الأشعار ؛ ولكننا لا نرى أنه كان شاعراً مجيداً ، فإن أشعاره تميل إلى النثانة والركة ؛ ولا نرى أنه يبلغ من جودة القول ما بلغه شعراء الجاهلية حتى تختلط أشعاره بأشعارهم .

يقول البغدادي (خزانة الأدب ج ٤ ص ١٣١) : « وكتب حماد إلى بعض رؤساء الأشراف :

إنّ لي حاجةً فرأيك[1] فيها ؟ لك نفسي فدًى من الأوصاب
وهي ليست مما يبلغها غيـ ـري ولا يستطيعها في كتاب
غير أني أقولها حين ألقـ ـاك رويداً أسرّها في حجاب

فكتب إليه الرجل : اكتب إليّ بحاجتك ، ولا تشهرني في شعرك . فكتب إليه حماد :

إنني عاشق لجبتك الدكناء عشـ ـقاً قد حال دون الشراب
فاكسنيها فدتك نفسي وأهلي أتباهي بها على الأصحاب
ولك الله والأمانة أن أجعلـ ـها عُمَّرها أمير ثيابي »

هذه سورة لشعر حماد الذي يصفه القدماء بالجودة ، ويرفعونه إلى طبقة الشعر الجاهلي . فهل ترى أن مثل هذا الشعر يتسامى إلى ما قاله قيس بن الحدادية في مديح أسد بن كُرز[1] ، وزعم البعض أنه من صنع حماد[2] ؟

لاتعذليني سَلْمَ اليومَ وانتظري أن يجمع اللهُ شملا طالما افترقا
إن شتت الدهر شملا بين جيرتكم فطال في نعمة يا سلم ما اتفقا
وقد حللنا بقسريّ أخي ثقة كالبدر يجلو دجى الظلماء والأفقا
لا يجبُرُ الناسُ شيئاً هاضه أسدٌ يوماً ولا يرتقون الدهر ما فتقا
كم من ثناءٍ عظيمٍ قد تداركه وقد تفاقمَ فيه الأمرُ وانخرقا

(٢) قدّمت في الفصل السابق أنه لم يصح عن حماد وضع في المعلقات ، وهي أهم ما رواه . فإذا كانت المعلقات قد سلمت من وضعه وانتحاله ، فلماذا لم يسلم سائر ما رواه ؟ ولماذا لم ينتحل حماد المعلقات ، وهو المشغوف بالانتحال العاكف عليه الجاعل له همّه وقصده ؟

(٣) يقول أبو عمرو الشيباني ، فيما رواه أبو الفرج (ج ٥ ص ١٦٥) : « ما سألت أبا عمرو بن العلاء قط عن حماد الراوية إلا قدّمه على نفسه ، ولا سألت حماداً عن أبي عمرو إلا قدّمه على نفسه » . فما رأيك في رجل هذا رأي ابن العلاء فيه ؟ وابن العلاء راوية ثقة ، وأحد القراء السبعة . مرّ الحسن به وحلقته متوافرة والناس عكوف عليه ، فقال : لا إله إلا الله ، لقد كادت العلماء أن يكونوا أرباباً ، كل عزّ لم يؤكّد بعلم فإلى ذُلّ يؤول . ما رأيك في رجل يقدمه ابن العلاء على نفسه ؟ وهل تظن أن أبا عمرو بن العلاء ممن يرتضون تقديم رجل منتحل كاذب بالغ في الانتحال والكذب ؟

(١) يريد حماد أن يقول : فما رأيك فيها ؟

(١) هو جد خالد بن عبد الله القسري ، وكان يدعى في الجاهلية « رب بجيلة » ، وكان شاعراً فاتكا مغواراً ، وقد أدرك الاسلام وأسلم .

(٢) الأغاني ج ١٣ ص ٤ .

القسم الثانى

١ — تمحيص أقوال القدماء فى انتحال حماد :

فأما قول المفضل ، وقول يونس بن حبيب ، فإننا نقف منهما موقف الحذر. فقد كان المفضل معاصراً لحماد ، وكذلك كان يونس ابن حبيب . والمرء لا ينصف معاصره ، فى أغلب الأحيان ؛ ولا سيما إذا كانا من صناعة واحدة . بل إننا حين نقرأ قول المفضل : قد سُلِّط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً ، ثم نقرأ قول من سأله : وكيف ذلك ؟ يخطر ببالنا هذا السؤال : إذا كان حماد معروفاً فى عصره بكثرة الانتحال ، فلماذا سأل السائلُ المفضل واستفسره ؟

وأما قول خلف وقول الأصمعى ، فإننا نقف منهما موقف الإرتياب ، فقد كان خلف معاصراً لحماد ، وكذلك كان الأصمعى. ثم إنهما كانا بصريين ؛ وما كان لبصرىّ أن ينصف كوفيّاً كحماد ، إلا إذا كان فى خلال أبى عمرو بن العلاء . وليس هنا مكان الحديث عما كان بين الكوفة والبصرة ، فى مجال العلم والأدب ، من تنابذ وتخاصم وصراع . هذا إلى أن خلف الأحمر كان منتحلا ، ذاع ذلك عنه ، واعترف هو به ؛ وذلك أنه نسك فى أخريات أيامه وترك الشعر والكلام ، فخرج إلى أهل الكوفة ، وعرفهم الأشعار التى أدخلها فى أشعار الناس .

وأما ما ذكره السيوطى من قول أبى حاتم ، فإننا نقف منه موقف الشك . ذلك لأننا لم نقف عليه إلا لدى السيوطى ، وهو متأخر[1] . هذا إلى أن أبا حاتم بصرى ، لا يؤخذ بقوله فى حمّاد إن صحّ منه هذا القول .

وأما ما يقوله ابن سلاّم فى حماد من أنه كان غير موثوق به ، فقد سمعه من غيره ، ولم يبنه على تجربته . ذلك لأنه لم يشهد أيام حماد ، ولم يتقدم به الزمن ليرى كذبه وانتحاله . فقد سمع هذا إذاً من غيره ، ثم دوّنه فى كتابه ، وهو يعلم أنه يتهم عالماً كوفياً . وكان ابن سلام من علماء البصرة .

(١) توفى سنة ٩١١ هـ .

٢ — تمحيص أخبار انتحاله :

نبدأ بتمحيص قصة حماد مع الخليفة المهدى . فنعيد ما قلناه فى صدد حياة حماد من أنه لم يدرك عصر المهدى فى أغلب الظن ، فقد توفى سنة ١٥٦ هـ كما يقول ابن النديم ، أو سنة ١٥٥ هـ كما يقول ياقوت وابن خلكان ، بينما أن المهدى تولى الخلافة سنة ١٥٨ هـ . ونعيد ما قلناه من أن الرواية التى يشير إليها ابن خلكان إذ يقول : « وقيل إنه توفى فى خلافة المهدى » غيرُ صريحة النسبة ، ولا تذكر تاريخاً معيناً مما يحدو بنا إلى رفضها . نعيد ما قلناه من أن حماداً لم يدرك عصر المهدى ، ومن أن رواية ابن خلكان ضعيفة ، لنصل من هذا إلى أن قصة حماد مع الخليفة المهدىّ قصة باطلة كاذبة ، وإلى أنها إنما اخترعت اختراعاً ولفّقت تلفيقاً . اخترعت ولفقت فى سيل النيل من حماد ، ورفع قدر المفضل . وإلاّ فما رأيك فى قصة تنتظم ثلاثة فصول ؟ فصلا يحادث فيه المهدىُّ المفضل وحده ؛ وفصلا يحادث فيه المهدى حماداً وحده ؛ ثم فصلا كأنه خاتمة يخرج فيه حماد والمفضل معاً ، وقد بان فى وجه حماد الانكسار والغمّ وفى وجه المفضل السرور والنشاط ، ويرجع فيه الخادم منهما فيقول : يا معشر من حضر من أهل العلم ، إن أمير المؤمنين يُعلمكم أنه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره وأبطل روايته لزيادته فى أشعار الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألف درهم لصدقه وصحة روايته ؛ فمن أراد أن يسمع شعراً جيداً محدَثاً فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل . فما رأيك فى قصة قد فصّلت تفصيلا ، ونسّقت تنسيقاً ، وقُسّمت فصولا ؟ وما رأيك فى كلام الخادم ؟ ألا ترى أنه شبيه بكلام من يروّج بضاعة فى سوق ؟ ثم ألا ترى أنه يفاضل بين رواية حماد ورواية المفضل فى تفصيل ودقة كأنه ناقد خبير ، لا خادم أجير ؟ أظنك ترى بعد هذا أن هذه قصة باطلة كاذبة ، فقد اخترعت اختراعاً ولفقت تلفيقاً . ثم إن الجاحظ فى البيان والتبيين (جـ ٢ صـ ٢٠٢ — ٢٠٣ ط السندوبى) يذكر رواية من شأنها تكذيب هذه القصة . يقول الجاحظ : « أبو الحسن قال : كان رجل من ولد عبد الرحمن بن سَمرة أراد الوثوب بالشام ، فحمل إلى المهدى ، فخلى